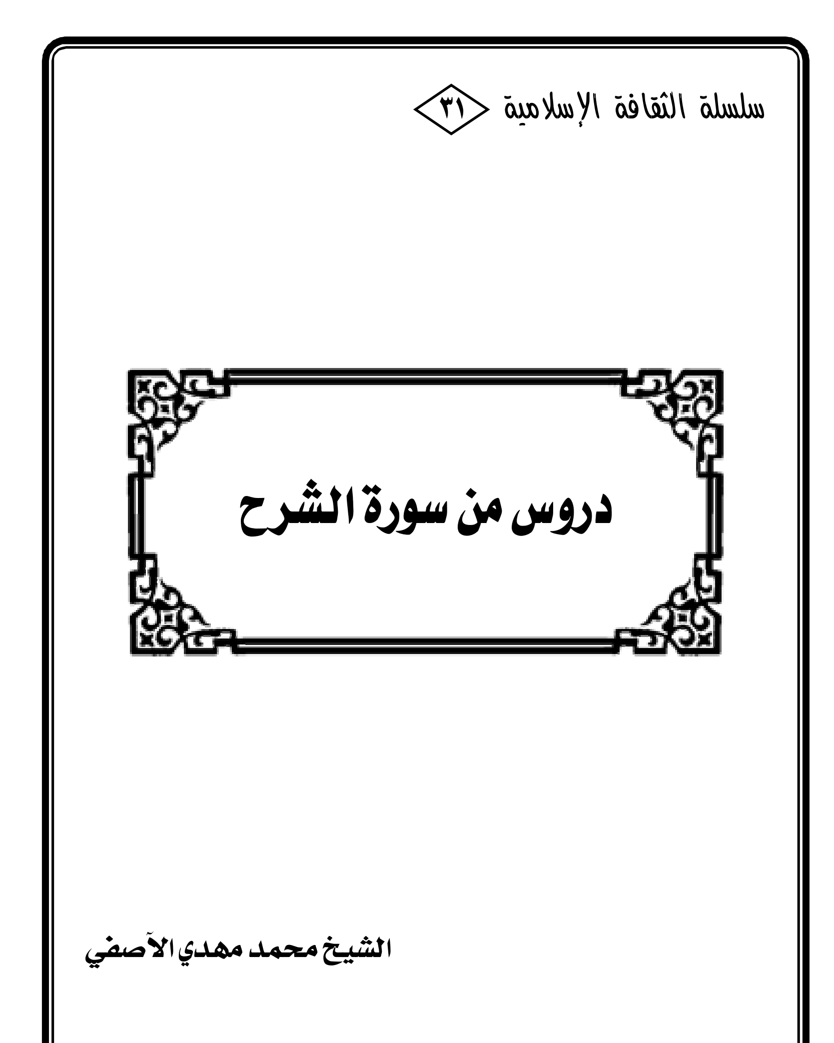


مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات

الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... دروس من سورة الشرح

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م

الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

الشرح: ١ ـ ٨

دروس من سورة الشرح

ظروف نزول السورة

نزلت هذه السورة في ظروف الشدة والعسر في مكة في الفترة الصعبة التي كان رسول الله ﷺ والصحابة يلقون فيها ألوان الاضطهاد والأذى على أيدي عتاة قريش.

في هذه الظروف نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بأربعة دروس، وأيّة أربعة، وهي دروس ضرورية لابدّ منها للعاملين، في أي زمان، ومن دون هذه الدروس لا يمكن أن يواصل المؤمنون عملهم في الدعوة إلى الله.

وهذه الدروس هي:

١ـ شرح الصدر، ٢ ـ الأمل، ٣ ـ المقاومة، ٤ ـ الذكر والارتباط بالله.

ويعيش الدعاة إلى الله اليوم في كثير من أقطار العالم الإسلامي ظروفاً مشابهة للتي عاشها الرعيل الأول من المسلمين

بصحبة رسول الله ﷺ في مكة، ولذلك تبقى سورة (الانشراح) حاجة حقيقية قائمة للعاملين في سبيل الله في عصرنا يحتاجون إلى استيعاب دروسها.

واستيعاب هذه الدروس والالتزام بها يمكن الإنسان من مواصلة الطريق إلى نهايته، وتجاوز العقبات الكثيرة الموجودة على هذا الطريق في ظروف غربة الإسلام ومحنته، كما كان سلفنا يحتاجها في مكة في الأيام الأُولى من ميلاد الرسالة.

شرح الصدر

وهو في مقابل ضيق الصدر. ومن خلال هذا التقابل نستطيع أن نفهم معنى شرح الصدر.

الصدور الضيقة هي التي لا تستوعب هموم العمل ومتاعب المواجهة، فتطفح عليها المتاعب وهموم العمل، وتتحول إلى (الجزع) و(التعب) و(اليأس).

وأما الصدور التي يشرحها الله تعالى فإنها تستوعب المشاكل والهموم والمتاعب، وتتحول فيها إلى الصبر والمقاومة،

والاستعانة بالله.

ومثل الصدور التي يشرحها الله كالبحر، لا يلوثه شيء مما يلقى فيه من القذارة، أما المساحات الراكدة والمحدودة من الماء فإنها سرعان ما تلوثها الأقذار وتطفح عليها، وتغير لونها وطعمها ورائحتها.. والفرق سعة الإناء وضيق الإناء.

وكذلك الصدور الواسعة التي شرحها الله، لا تضيق بهموم العمل ومتاعبه، ومهما واجه صاحبها من المشاكل والمتاعب والهموم استوعبتها وتجاوزتها.

بخلاف الصدور الضيقة التي تضيق بالقليل من الهموم والمتاعب وتطفح عليها فتجزع وتتعب وتيأس.

والانهيار والتراجع والخذلان النتيجة الطبيعية لهذا الضيق، كما إن الصبر والمقاومة وذكر الله والتوكل على الله هو النتيجة الطبيعية للصدور الواسعة التي شرحها الله.

إذن الصدور وعاء شخصية الإنسان وهي على طائفتين:

الصدور الواسعة التي شرحها الله.

والصدور الضيقة الحرجة.

في الصدور الواسعة تتحول الهموم والمتاعب إلى الصبر والذكر.

وفي الصدور الضيقة تتحول الهموم والمتاعب إلى الجزع والسقوط.

في الصدور الواسعة تتحول الإساءة إلى الحلم والعفو.

وفي الصدور الضيقة تتحول الإساءة إلى الانفعال والغضب والانتقام.

في الصدور الواسعة تتحول الفتن والمغريات إلى التقوى.

وفي الصدور الضيقة تتحول الفتن والمغريات إلى الانزلاق وإلى الإثم.

في الصدور الواسعة يتحول الرزق والنعمة إلى الشكر.

وفي الصدور الضيقة يتحول الرزق والنعمة إلى السكر (السكر النعمة) والطغيان.

في الصدور الواسعة تتحول المصيبة إلى الصبر.

وفي الصدور الضيقة تتحول إلى الجزع.

في الصدور الواسعة يتحول العلم والموقع إلى التواضع.

وفي الصدور الضيقة يتحول العلم والموقع إلى الغرور.

شرح الصدر في العمل

وأول ما يحتاجه الدعاة إلى الله في ساحة العمل هو شرح الصدر.

ولقد بعث الله تعالى رسوله وكليمه إلى بني إسرائيل وفرعون ليدعوهم إلى الله.. فلم يطلب موسى بن عمران عليه السلام مالاً ولا سلطاناً، ولا قوة من عند الله، لينهض بهذه المهمة الصعبة، وإنما سأل الله تعالى أن يرزقه شرح الصدر وتيسير الأمر، فقال:

﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**﴾[1].

وقدم شرح الصدر على تيسير الأمر.

إن الذي يحتاجه الدعاة إلى الله على طريق ذات الشوكة أمران:

(1) طه: ٢٥ ـ ٢٦.

١ ـ مضاعفة التحمل ٢ ـ وتخفيف الحمل.

وكلاهما سأل اللهَ تعالى موسى بن عمران في بداية المهمة، ولكنه يقدم السؤال الأول على السؤال الثاني، ويطلب من الله تعالى أن يضاعف تحمله أولاً، ثم يطلب من الله أن يخفف له الحمل ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**﴾.

وفي بدايات الدعوة أيام الشدة والضيق كان أول ما منّ الله به على عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم هو شرح الصدر ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾.

وإن ساحة العمل وطريق ذات الشوكة صعب، ولولا إسناد الله تعالى ودعمه وتطمينه لنفوس أنبيائه وعباده الصالحين لضاقت صدورهم مما يلاقون.

يقول تعالى مخاطباً رسوله:

﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ**﴾[1].

(1) الحجر: ٩٧.

ولكن الله تعالى يؤيد أنبياءه مرتين:

يشرح صدورهم، ويزيد ويضاعف في تحملهم **أولاً**، ثم يرفع عنهم الحمل، ويضع عنهم ثقل العمل **ثانياً**.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

ويأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصبر ويوسع صدره لما يلاقي من قومه، ولا يجزع، ولا يفقد صبره، كما ضاق صدر العبد الصالح أيوب عليه السلام من قبله بما لاقاه من قومه **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾**[1].

العلاقات التبادلية بين الصدور وساحات العمل

ومن عجب أن شرح الصدر هو أول متطلبات العمل ـ كما قلنا قبل قليل ـ ولا يتمكّن الإنسان أن يدخل ساحة العمل من غير شرح الصدر.. وفي نفس الوقت لا يزود الله الإنسان بشرح الصدر

(١) القلم: ٤٨.

إلاّ في ساحة العمل. فليس يكتسب الإنسان شرح الصدر في عقر بيته، وفي أيام العافية واليسر، وإنما يكتسب شرح الصدر في ساحة المواجهة، وفي أيام الشدة والضيق، وبين شرح الصدر وساحة العمل علاقة تبادلية (جدلية)، وهي واحدة من سنن الله تعالى في ساحات المواجهة وأيام العسر والشدة.

ووضعنا عنك وزرك

ثم بعد ذلك يمنُّ الله تعالى على رسوله أنه وضع عنه وزره (حمله الذي أثقل ظهره).

والوزر هنا الثقل وهو ثقل العمل والرسالة الذي كاد أن ينقض ظهر رسول الله ﷺ لولا تأييد الله تعالى وإسناده.

وتفسير (الوزر) بالذنب ـ كما يقول بعضهم ـ تفسير بعيد، والذي يناسب شرح الصدر هو الثقل والحمل، كما في دعاء موسى بن عمران عليه السلام.

ومعنى (وضع الوزر) تخفيف الحمل بالإسناد والتأييد، وقد قاتل الملائكة دون رسول الله ﷺ في معركة بدر ودافعوا عنه،

وأنـزل الله عليـهم المطـر، وكانـت الأرض التـي عليهـا المسـلمون يومئـذ رمليـة فتلبـدت، والأرض التـي عليهـا المشـركون طينيـة فتطينـت وتزلقـت بهـم. وقـد شـق الله تعـالى البحـر لموسـى عليه السلام فاجتاز هو وبنو إسرائيل البحر، فلما دخله فرعون وجنـده رجعـت المياه إلى حالها فغرقوا في البحر. ولقد أهلك الله قوم عـاد وثمـود وقوم لوط ودمر ديارهم تدميراً، والله تعالى يقـول ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾. يرفع عنهم ثقل العمل، ويضع عنهم عبء الرسـالة، ويخفـف عـنهم متاعـب الطريـق، وينصـرهم ويهلـك أعـداءهم، وليس يكلهم إلى أنفسهم في ساحة المواجهة والصراع، وهذا هو قوله﴿**وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ**﴾ والله أعلم ببصائر كتابه.

الهلع

مقابل شرح الصدر.. (الهلع). يقول تعالى:

﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّـرُّ جَزُوعـاً * وَإِذَا**

مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾[١].

وحالة الهلع هـي حالـة ضـيق الصـدر، والجـزع عنـد الابـتلاء بالشر، فإن الشر يفيض ويطفح عندئذ على هذه الصـدور الضـيقة، أما الصدور الواسعة فإنها تستوعب الشر، وتحوله إلى صبر وحلـم وذكر، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾.

فـإن مـردود الخيـر والنعمـة فـي الصـدور الضـيقة الكفـران والطغيان والشح والمنع. يقول تعالى:

﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[٢].

إن الطغيان والكفر والمنع والشح من إفـراز الصـدور الضـيقة، أمـا الصـدور الواسـعة فمردودهـا الـذكر، والشـكر، والعبوديـة، والصبر، والحلم، والعطاء.

(١) المعارج: ١٩ ـ ٢١.

(٢) العلق: ٦ ـ ٧.

شرح الصدر في المعرفة

ما تقدم من حديث يخص شرح الصدر في المعاناة والابتلاء، وهو باب واسع من شرح الصدر، والباب الآخر لشرح الصدر المعرفة والبصيرة.

والصدور أوعية المعرفة، كما هي أوعية الابتلاء. فمن الصدور صدور شرحها الله تعالى للمعرفة، فتعي وتبصر، وتنفتح على المعارف، وتتلقى من النور والوعي ما لا يتلقاه الآخرون.

ومن الصدور صدور قاسية، لا يدخلها النور، ولا المعرفة، ولا تتفتح على الهداية، وبينهما درجات ومراتب، بعضها فوق بعض. يقول تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ للإِسْلام فَهُوَ عَلَى نُـور مِّن رَّبِّه فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَة قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّه أُوْلَئكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾[1].

الصدور التي شرحها الله يدخلها النور، وأما القاسية فلا ينفذ إليها النور، إلاّ إذا نفذ النور إلى عمق الحجارة الصلدة.. وليس

(١) الزمر: ٢٢.

العجز في النور، ولكن في الصدور، فإن النور ينزل على كل مكان من غير حساب، ولكن الصدور تحتجب عن النور عندما تكون قاسية.

أسباب الشرح

والله سبحانه هو الذي يشرح الصدور، وهو الذي يجعل الصدور ضيقة حرجة، ما في ذلك شك. يقول تعالى: ﴿**فَمَن يُرِد اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[1].

والهداية والضلالة هي الانفتاح والانغلاق على النور. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره، فيدخل إلى قلبه النور، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً، فينغلق على النور.

وفي القرآن تأكيد على هذا المعنى في أكثر من موضع،

(١) الأنعام: ١٢٥.

يقول تعالى: **﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾**، **﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾**، **﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾**، **﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾** ونظائر ذلك في كتاب الله.

وكلها يؤكد أن أمر الصدور بيد الله، يشرحها ويضيقها.. فإذا شرحها الله دخلها النور والمعرفة، وإذا ضيقها الله انغلقت على النور والمعرفة.. ونظير ذلك (النصر)، فإنه من عند الله -من دون ريب- والقرآن يقرر هذه الحقيقة وينسب النصر إلى الله في أكثر من موضع:

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[1].

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[2].

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[3].

(١) النصر: ١.

(٢) آل عمران: ١٢٦.

(٣) الفتح: ١.

﴿وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء﴾[1].

إلاّ أن ذلك أحد وجهي هذه القضية، وهو حق وصحيح، والوجه الآخر أن أسباب هذا النصر الإلهي بيد الإنسان نفسه، إن ينصره الله نصره الله، وإذا لم يشأ لا ينصره الله.

تأملوا إلى الوجه الآخر من هذه القضية:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[3].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[4].

وهذا هو الوجه الثاني لهذه القضية، ولا يشق علينا أن نجمع هذين الوجهين معاً، في تصور واحد متكامل، يكمل كل من الوجهين الوجه الآخر.

(١) آل عمران: ١٣.

(٢) محمد: ٧.

(٣) الأنفال: ٦٠.

(٤) الحج: ٤٠.

وكذلك الأمر في (شرح الصدر) و(ضيق الصدر) فإن أسباب شـرح الصـدر وضـيق الصـدر بيـد الإنسـان، والله تعـالى يشـرح الصدور ويضـيقها بقـانون وسُنة، كمـا هـو شـأنه تعـالى فـي كـل شيء، وليس لسُنّة الله تحويل ولا تبديل.

والآية (١٢٥) من سورة الأنعام نفسـها تبـين هـذه السُـنّة بعـدما تبين أن أمر الشرح والضيق في الصدور بيد الله، وهذا القانون هـو: ﴿**كذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾[1].

صـحيح أن الله تعـالى هـو الـذي يشـرح الصـدور ويضـيّقها.. ويبعث فيها الحيـاة ويميتهـا، ولكـن هـذا الضـيق والـرجس الـذي يصيب الإنسان بسبب الإنسان نفسه، الذي أعرض عـن الله، وصـدّ عن سبيل الله. وهو عقوبة ونتيجة لصدوده وإعراضه عن الله.

ومن أفظع الخطأ في فهم كتاب الله أن نفكك بصائر الكتـاب، بعضها عن بعض، ونحاول أن نفهم بعضها مفصولاً عن بعض.

إن هذا المنهج التفكيكي في فهم القـرآن يـؤدي إلـى أخطـاء

(١) الأنعام: ١٢٥.

كبيرة، ويتسبب في ظهور نِحل ومذاهب منحرفة فـي فهـم كتـاب الله وتأويله.

مفتاح شرح الصدر

مفتاح شرح الصدر: (الصبر والصلاة).

والدليل على ذلك سورة هود، وقـد نزلـت هـذه السـورة علـى رسـول الله ﷺ أيـام الشـدة والبأسـاء والضـراء، لتبعـث السـكينة والطمأنينة على القلب الكبير في مواجهة عتاة قريش.

وتقص السورة على رسـول الله ﷺ قصـص الأنبيـاء مـن قبلـه، كابراً بعد كابر، وتذكّره ﷺ بما لاقوه من أقوامهم من الاضـطهاد والعذاب والعناد واللّجاج، وكيـف واجـه الأنبيـاء عليهم السلام هـذا العنـاد والطغيان بالصبر والمقاومة.

ثم تأمر رسول الله ﷺ بالاستقامة والثبات علـى هـدى الأنبيـاء من قبله: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَـن تَـابَ مَعَـكَ**﴾[1]. وتختم

(١) هود: ١١٢.

السورة هذا الدرس العظيم بهذه الآية الكريمة التي هي مفتاح كل ما رزق الله أنبياءه عليهم السلام من شرح الصدر، والثبات، والمقاومة: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1].

ومن سورة البقرة نقرأ نفس المعنى:

﴿**اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[2].

وإنما يأمرنا الله تعالى أن نستعين بالصبر والصلاة، لنواجه بهما هموم العمل ومتاعب الحياة وعقبات طريق ذات الشوكة إن الصلاة ذكر الله ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**﴾.

وفي ذكر الله كل ما يحتاج العامل السالك إلى الله من زاد الطريق، وحول، وقوة، وسكون، واطمئنان، وتوكل، وثقة بالله، فيشد الإنسان حبله بحبل الله، فيتحول ضعفه إلى قوة، وفقره إلى

(١) هود: ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) البقرة: ١٥٣.

غنى بالله، وجهله إلى سداد ومعرفة، وبذكر الله يخرج الإنسان من أفق الإنسان الضيق إلى رحاب الرحمان الواسع، وماذا يحتاج الإنسان بعد ذلك؟ هذا عن (الصلاة).

وفي الصبر المقاومة والثبات.

وبين الصبر وشرح الصدر علاقة تبادلية. فإن الصبر على الابتلاء يمنح الإنسان شرح الصدر وهو في نفس الوقت من نتائج شرح الصدر.

وهذا باب واسع من المعرفة، سبق أن أشرنا إليه. إن الإنسان لا يكتسب شرح الصدر وهو قابع في زاوية بيته، فإذا دخل ساحة المواجهة، وعصرَه البلاء عصراً، وصبر على المواجهة والابتلاء.. عندئذٍ يمنحه الله شرح الصدر، والعكس أيضاً صحيح فإن الله تعالى إذا شرح صدر عبده، فقد رزقه الصبر والمقاومة والصمود في متاعب العمل وهموم الدعوة.

وعندئذ يكون الصبر من إفراز ونتائج شرح الصدر، ومن خلال هذه العلاقة التبادلية بين (الصبر) و(الشرح) يتصاعد الصبر

والشرح، فالصبر يزيد شرح الصدر وشرح الصدر يزيد الصبر.

وكذلك الأمر بين الصلاة وشرح الصدر.

بالصلاة يشرح الله صدر عباده، وإذا شرح الله صدر عبده أقبل العبد على الصلاة وذكر الله، ووجد في الصلاة قرة العين، وراحة القلب. **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾**

هذه سُنّة من سنن الله في التاريخ، ووعي هذه السُنّة ينفع العاملين الدعاة إلى الله كثيراً، ومن يعرف أن من بعد العسر يسراً لا يستغرقه العسر، ولا يسقط في العسر.

أما إذا كان لا يعرف الإنسان أن من وراء العسر يسراً، فإن العسر لا محالة يستهلكه ويستغرقه، تماماً كما إذا كان الغريق يرى قارب النجاة يقترب منه سريعاً، أو يصرخ فلا يسمعه أحد ولا يراه أحد، والأمواج تقذفه وتبتلعه.

إن سُنة اليسر بعد العسر من السنن الإلهية الأكيدة التي ورد التأكيد عليها في القرآن في مواضع عديدة.

والإيمان بهذه السنة ووعيها من ضرورات العمل.

ولذلك سوف نتوقف عند هذه السُنّة بعض الوقت لنتأمل فيها من خلال كتاب الله.

سُنّة الاستدراج وسُنّة الابتلاء سُنّتان متقابلتان

سُنّة الاستدراج نعمة بعدها سقوط ومحق وعذاب، وهذه النعمة ظاهرها رحمة وباطنها النقمة يستدرج فيها الله تعالى المسرفين والظالمين بالنعمة فتلهيهم النعمة، وتبطرهم فينخر بنيانهم من الداخل، فينهار، وذلك هو المحق والسقوط في حياة هذه الأمم.

وهذا السقوط يتم عادة بغتة وبصورة مفاجئة كما حدث ذلك في عصرنا للإتحاد السوفيتي. يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

(١) الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥.

وإنما يفتح الله أبواب النعمة عليهم ليفرحوا، ويتمادوا في غيهم وطغيانهم، فيأخذهم الله بغتة، أخذ عزيز مقتدر، وهذه السُنّة هي نفسها سُنّة الإملاء في القرآن، وإنما يسميها القرآن بالاستدراج لأن الله تعالى يستدرج بها المسرفين إلى السقوط، ويسميها القرآن بـ(الإملاء) لأن الله تعالى يملي فيها للمسرفين. والإملاء هو الإمداد، كما يقول الراغب في المفردات ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[١].

هذا عن سُنّة الاستدراج والإملاء، وسُنّة الابتلاء بعكس سُنّة الإملاء، يبتلي الله تعالى فيها عباده بالشدة والعسر والضيق حتى يذكروا الله ويتضرعوا ويقبلوا على الله.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[٢].

يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ

(١) الرعد: ٣٢.

(٢) المؤمنون: ٧٦.

وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[١].

وهذه هي سُنّة الابتلاء، وهي سُنّة عامة شاملة للمعاناة، والعذاب، والضيق، والشدة في هذه السُنّة ظاهرها عذاب وباطنها الرحمة، بعكس سُنّة الاستدراج.

سُنّة التيسير

ويعقب الابتلاء التيسير والفرج.

وكما أن سُنّة الابتلاء عامة، كذلك الفرج بعد الشدة سُنّة إلهية حتمية في دورة التاريخ، فلن يبتلي الله تعالى عباده بابتلاء في دنياهم وعاقبتهم إلاّ ويعقب هذا الابتلاء فرج ورخاء بشروط نذكرها.

يقول تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[٢].

(١) البقرة: ١٥٥.

(٢) الليل: ٥ ـ ٧.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾[1].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[2].

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[3].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾[4].

وتأكيدات القرآن وإشاراته إلى ذلك كثيرة، وهذه الآيات بمجموعها ترسم حدود هذه السُّنّة الإلهية.

يسر مع العسر وليس بعده

ومن رقائق التعبير في سورة الانشراح قوله تعالى: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾** واليسر يأتي بعد العسر عادة، ولكن القرآن يريد أن يقرب اليسر إلى العسر للناس، ويوحي إليهم بالتصاق اليسر بالعسر، فيعبّر عن هذا التجاور والتعاقب القريب بين اليسر والعسر

---

(١) الطلاق: ٢ .

(٢) الطلاق: ٤ .

(٣) الطلاق:٧ .

(٤) الأعلى: ٨ .

بكلمة (مع) **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾**.

وهو من رقائق تعبير القرآن، فإن لكلمة (مع) من الظلال والأداء ما ليس لكلمة (بعد).

عسر واحد لا يغلب يسرين

ومن لطائف التعبير في آيتي اليسر تنكير اليسر في الآيتين، وتعريف العسر فيهما بالألف واللام **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾**. والقاعدة: إن المعرفة إذا أعيدت في الكلام المتصل على نحو التعريف، كان المقصود به نفس الشخص الأول، بخلاف النكرة إذا أعيدت في الكلام المتصل على نحو التنكير، فلا يكون المقصود منها نفس الشخص الأول.

فإذا قلنا: (إذا كسبت الدينار فانفق الدينار) كان المقصود نفس الدينار. وإذا قلنا: (إذا كسبت ديناراً فانفق ديناراً) لم يكن المراد بالدينار الثاني نفس الدينار الأول.

وفي آيتي اليسر في سورة الانشراح يرد اليسر على نحو

التنكير في الآيتين، بينما يرد العسر فيهما على نحو التعريف.. فلابدّ أن يكون المقصود من العسر فيهما عسراً واحداً، بخلاف اليسر.

والسر في ذلك، أن ألف اللام في العسر الثاني للعهد، وهو إشارة إلى العسر الأول، فيكون واحداً بخلاف اليسر.

وقد روي أن رسول الله ﷺ خرج يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عسر يسرين، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾»[1].

وعن ابن عباس قال: «يقول الله: خلقت عسراً واحداً وخلقت يسرين، فلن يغلب عسر يسرين»[2].

باقة من الحديث

عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال لعبدالله بن

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٣٨٦.

(٢) تفسير مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٣٩٠.

عباس: ألا أعلمك كلمات تنتفع بهن؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: أحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما كان وما هو كائن، ولو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لما قدروا، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[1].

وعن علي عليه السلام: «إن الله تعالى جعل مع كل قحط خصباً، ومع كل مأساة رخاء».

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضاً: «لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال الزمان»[2].

(١) الفرج بعد الشدة ١: ٢٧.

(٢) بحار الأنوار ٦٨: ٩٥ ح٦٠.

الدعاء باليسر بعد العسر

وقد ورد في الدعاء طلب اليسر بعد العسر كثيراً.

ومن ذلك: «واجعل لنا من أمرنا يسراً، واختم لنا بالسعادة إلى منتهى آجالنا»[1].

وفي دعاء الأسحار: «اللهم يسر لي ما أخاف تعسيره، فإن تيسير ما أخاف تعسيره عليك سهل يسير، وسهل لي ما أخاف حزونته، ونفّس عني ما أخاف ضيقه، وكفّ عني ما أخاف همّه، واصرف عني ما أخاف بليته، يا أرحم الراحمين»[2].

وعي العسر

(العسر) و(اليسر) سُنّتان إلهيتان حتميتان، ووعي هاتين السُنّتين يمكّن الإنسان من الانتفاع بهما والإفادة منهما، فإن الناس ـ كل الناس ـ يخضعون لسنن الله، وعوا هذه السنن أم لم يعوها، غير أن

(١) مصباح المتهجد للطوسي: ٨١٤، دعاء يوم السابع والعشرين من رجب.

(٢) مصباح المتهجد: ٦٠١.

الذي يعي السنة يتحمل السنة وينتفع منها بشكل أفضل، والذي لا يعي السنة تشق عليه (إذا كانت ابتلاءً) ويخسر كثيراً من مواقع الاستفادة من هذه السنن.

ولذلك كان الاهتمام بتبيان وتفسير السنن في القرآن، وقد تكررت الإشارة إلى سنة العسر واليسر في القرآن.

ففي (سورة آل عمران) يرسم لنا القرآن صورة دقيقة لسُنّة (العسر) تتضمن كثيراً من الحقائق والايحاءات.

يقول تعالى: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء**﴾.

وفي هذه الآية الكريمة يعلمنا الله أربعة دروس عن العسر واليسر.

الدرس الأول: إن العسر من خصائص المعركة، فمن يدخل المعركة يمسه شيء من العسر والشدة، وتصيبه قروح المعركة، ولا تختص هذه السنة بالمؤمنين، فإن ما يصيب الكفار من

القروح من المعركة لا تقل عما يصيب المؤمنين، وهكذا تكون المعارك، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

والدرس الثاني: إن الله تعالى جعل الأيام تداولاً بين الناس، يقلبهم من يوم إلى يوم، فيذيقهم بعد نشوة الانتصار في (بدر) مُرّ النكسة في (أحد).. وفي هذا التقليب منافع للناس، فإن نشوة (بدر) إذا كانت تمتد بالمسلمين وتتصل، ولم تعقبها نكسة (أحد) أصاب المجتمع الإسلامي يومذاك حالة الترهل وتجمعت حوله العناصر الضعيفة وغير الصالحة والمنافقة، وداخل المسلمين حتى الصالحين منهم وأصحاب بدر الغرور والعجب، وكان لذلك أسوأ الأثر في دورهم القيادي في إمامة الأرض ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

والدرس الثالث: إن هذه المحن والشدائد هي التي تفرز الرجال الأشداء، والذين يتخذ الله منهم الشهداء والأئمة والقادة.

وأما أيام العافية واليسر فلا تأتي إلاّ بالضعاف الذين يؤثرون العافية على التضحية في كل شدة ومحنة غالباً، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ

الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾.

والدرس الرابع: التمحيص والمحق، يقول تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

في مثل هذه الابتلاءات والمحن يمحص الله تعالى المؤمنين، ويشذبهم ويهذب نفوسهم، ويأخذ عنهم الميل إلى العافية، والضعف، والجبن، وحب الدنيا، ويبقي لهم الشجاعة، والتضحية، والقوة، والزهد في الدنيا (وهذا هو التمحيص) و﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، أما الكافرون، فتمحقهم المحنة، وتهلكهم.. والمحنة هي المحنة لا فرق، ولكن الأثر يختلف بين التمحيص والمحق، وذلك أن المؤمنين يقاومون المحنة، فتمحصهم، والكافرون يسقطون في الفتنة والمحنة فتمحقهم. أرأيت النار تشتعل في الخشب والحديد، فتحرق الخشب وتصهر الحديد وتخلّصه مما يعلق به من ذرات التراب. ذلك أن الحديد يقاوم فيصهر النار، والخشب لا يقاوم فتحرقه النار.. وكذلك تعمل الفتن والمحن في نفوس المؤمنين والكافرين.

العسر سُنّة مطلقة، أما اليسر فهو سُنّة مشروطة وليست مطلقة، ووعي هذه الحقيقة على درجة عالية من الأهمية، لأن سنن الله تعالى في المجتمع والتاريخ على شكلين: مطلقة ومشروطة.

والسنن المطلقة هي التي تعم الناس جميعاً من دون قيد وشرط، مثل سُنّة الابتلاء.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَـوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾.

وهذه سُنّة مطلقة تعم الناس جميعاً ولا يخلوا عنها إنسان قط، وفيها ينجح ناس ويفلحون، ويسقط ناس ويهلكون، ولا دخل لإرادة الإنسان في هذه السُنة.

وسُنّة عمومية العذاب فإن العذاب إذا حلّ بقوم بسبب ظلمهم وعصيانهم عمّهم جميعاً، الصالحين منهم والفاسقين، وهذه السُنّة من السنن المطلقة، يقول تعالى:

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

وأما السنن المشروطة فهي مقيدة بإرادة الإنسان واختياره وفعله، مثل سُنّة (التغيير) وسُنّة (النصر).

تأملوا في قوله تعالى في سُنّة (التغيير):

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

إن التغيير من عند الله بالتأكيد، وهي سُنّة من سنن الله في التاريخ والمجتمع، ولكن الله لا يغير ما بأمة حتى يغيروا ما بأنفسهم وما لم يغيروا ما بأنفسهم لا يغير الله ما بهم. وبتعبير آخر: ما لم يغيروا باطنهم لا يغير الله ظاهرهم.

وهذه سنة مشروطة ومقيدة.

وسُنّة (النصر) سُنّة إلهية ثابتة كتبها الله تعالى وسنّها لنفسه **﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**[(١)]. ولكنها سُنّة مشروطة. تأمّلوا في الآيات التالية:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[(٢)].

---

(١) المجادلة: ٢١.

(٢) محمد: ٧.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[2].

وسُنّة اليسر بعد العسر من سنن الله الحتمية بدون ريب، ولكنها سُنّة مشروطة وليست مطلقة. تأملوا في الآيات التالية: **﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾**[3].

والشرط هنا العطاء والتقوى والتصديق، **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾**، **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾**.

وهذا اليسر المشروط بالتقوى والتصديق والعطاء، يحفز الإنسان في ظروف الابتلاء والشدة للعمل والتقوى والعطاء، حتى يعجل الله تعالى له بالفرج، أما اليسر المترقب غير المشروط

---

(١) آل عمران: ١٣٩.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) الليل: ٥ـ٧.

فليس فيه تحفيز ولا تحريك.

وهذا وعي مزدوج، وكلا الوعيين نافع ومفيد للإنسان، وعي أن اليسر بعد العسر من الله، وليس من الإنسان حتى لا تأخذ الإنسان نشوة اليسر وسكر العافية والرفاه، ويتواضع لله، ويشكره في اليسر، كما يصبر على بلائه في العسر.

والوعي الثاني أن اليسر الذي يأتي من عند الله مشروط بعطاء الإنسان وعلمه وتقواه وجهده، حتى لا يخمل، فيكل الأمر إلى الغيب، ويكون مثله مثل بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم: **﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**.

إن تعاليم القرآن في الوقت الذي تؤكد على عمق التوحيد في كل شيء: في الضر، والعسر واليسر، والنصر، والشدة والفرج، في نفس الوقت تشد هذه السنن بإرادة الإنسان واختياره، وفعله، وعطائه ليؤدي دور الخلافة والإمامة على وجه الأرض.

فالنصر من الله بالتأكيد، ولكنه مشروط بعمل الإنسان واختياره وعطائه، واليسر من الله من دون شك، ولكنه مشروط في نفس

الوقت بعمل الإنسان وجهد الإنسان.

وهذا الوعي المزدوج من خصائص كتاب الله. ولعل قاعدة الأمر بين الأمرين التي وضع أساسها أهل البيت عليهم السلام في الثقافة الإسلامية لا تكون بعيدة عن هذا الوعي المزدوج لسنن الله.

فإذا فرغت فانصب

وهذا درس هام من دروس الحركة والعمل: إن الاسترخاء في العمل من أضرّ الأشياء على حركة العامل، وعمله، وعلى الإنسان أن يكافح حالة الاسترخاء، ولا يسمح لها أن تتخلل فترات عمله، ويواصل التحرك والعمل ليلاً ونهاراً من غير استرخاء، حتى في الفترات التي تتخلل الأعمال عندما يفرغ الإنسان من عمل، وقبل أن يدخل في المرحلة اللاحقة له.

والآية الكريمة تأمر المؤمنين ـ والله أعلم ببصائر كتابه ـ ألاّ يسمحوا أن تتخلل أعمالهم فترات الاسترخاء، يقول تعالى: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ**﴾ ، أي إذا فرغت من مرحلة من العمل فانصب نفسك لمرحلة أخرى من العمل من دون تراخي.

والنصب يأتي في اللغة بمعنيين: بمعنى التعب والجهد وبمعنى القيام، وعلى كلا المعنيين يستقيم تفسير الآية الكريمة بالمعنى الذي ذكرناه، سواء قلنا: (فإذا فرغت من عمل فأجهد نفسك لعمل آخر)، أو: (فإذا فرغت من عمل فقم وانهض لعمل آخر).

والمعنى على كل حال مكافحة حاله الاسترخاء[1] والتراخي في العمل.

فلا يفرغ الإنسان من شوط من العمل حتى يدخل شوطاً آخر.. ولا يسمح لحرارة العمل أن تبرد. فإن حرارة العمل إذا خفت في فترات الاسترخاء فليس من اليسير استعادة حرارة العمل من جديد.. وللحرارة والبرودة في الحركة والعمل والنشاط قانون ونظام، كما أن لهما قانون في الفيزياء.. وقانون الحرارة في العمل والحركة: أن حرارة العمل تتصاعد بالمواصلة،

(١) والاسترخاء غير الراحة، فإن الأجساد والأرواح لابدّ لها من راحة، حتى يواصل الإنسان عمله بالنشاط، ولا نريد نحن بالاسترخاء هذا المعنى الذي لابدّ منه للإنسان في حياته العملية.

وتخف وتتنازل بسرعة في فترات الاسترخاء.. وما ينزل من حرارة العمل في فترات الاسترخاء لا يمكن استعادته بسهولة.

ولذلك نجد التأكيد على مواصلة العمل ليلاً ونهاراً في القرآن من دون تراخي.

وقد كانت سورة المزمل من أوائل ما نزل من الوحي على قلب رسول الله ﷺ يخاطب الله تعالى فيها رسوله ﷺ: ﴿**قُمِ اللَّيْلَ إلاّ قَلِيلاً ...إنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً**﴾[1]، ومع السبح الطويل والشاق الذي ينتظره ﷺ في النهار يأمره الله تعالى أن يقوم الليل إلاّ قليلاً، نصفه أو ينقص منه أو يزيد عليه.

وفي سورة المدثر يأمر الله تعالى نبيه بالقيام والمقاومة معاً.

﴿**قُمْ فَأَنذِرْ . * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ**

(١) المزمل: ٢ و ٧.

(٢) المدثر: ٢ و ٧.

النُّجُومِ﴾[1].

صبر، ومقاومة، واستقامة في النهار، ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾، ولا تتردد، ولا تتوقف، ولا تتنازل، ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ ، نراك وندعمك ونسندك، ونسددك، ثم ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ**﴾، وهذا التسبيح الطويل حين تقوم، وفي الليل وإدبار النجوم، هو الزاد الذي يُعين رسول الله ﷺ لمواصلة المقاومة والصبر في النهار.. وهذا هو منهج القرآن في العمل، عمل متصل وشاق، في الليل والنهار، صبر وحركة واستقامة في النهار، تسبيح وذكر في الليل.. بهذا المزيج من المقاومة والتسبيح يتم العمل.

في حالات الاسترخاء يسرق الشيطان حرارة العمل من نفوس العاملين. إن لحظة الاسترخاء من اللحظات الضارة المهلكة في حياة الإنسان.

واللحظات الضارة كثيرة أهمها:

(١) الطور: ٤٨ ـ ٤٩ .

لحظة (الغفلة) ولحظة (النشوة) ولحظة (الاسترخاء).

في لحظة الغفلة قد يخسر الإنسان كل نتائج عمله.

فإن الشيطان يرصد الإنسان رصداً دقيقاً، فينقض عليه في لحظة واحدة من لحظات الغفلة، فيسلبه كل ما كسبه في حياته في أيام العمل، لولا أن يعصمه الله تعالى ويعيذه من الخبيث، ولذلك ورد التحذير الشديد من لحظات الغفلة.

لحظة الخطر الثانية، لحظة النشوة، فإن لحظات النشوة، إذا لم يسيطر صاحبها عليها تؤدي به إلى السكر والغرور والعجب والطغيان، وهي من اخطر الحالات على الإنسان.

وقد دخل رسول ﷺ مكة، ودخل المسجد الحرام، وهو مطأطأ الرأس، تواضعاً لله تعالى، وشكراً له، ولئلا تداخله نشوة النصر، ويأمر الله تعالى المسلمين في ساعات نشوة النصر والفتح الكبير بالتسبيح والاستغفار، ﴿**إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ**

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[١].

ولحظة الخطر الثالثة هي لحظة (الاسترخاء) بين عمل وعمل، فإن الإنسان إذا أصابه النصر أو الهزيمة في شوط من أشواط العمل سلبه الشيطان حرارة العمل ونشاطه.

فإذا أراد بعد ذلك أن يستعيد نشاطه وحركته شق عليه ذلك، وتمنعت عليه نفسه بالحركة والنشاط.

وهذه القاعدة تعم حالتي النجاح والفشل.

ذلك أن الإنسان إذا واجه الفشل في مرحلة من مراحل العمل نزعت نفسه إلى الركون وإلى الراحة والاسترخاء، حتى يتخلص من مرارة الفشل، وهو لا يعلم أن هذا الاسترخاء أضرّ عليه من الفشل نفسه أضعافاً مضاعفة.

فإن الإنسان إذا كان على نشاطه وقوته يتدارك الفشل في المحاولات القادمة. أما إذا خمد نشاطه واسترخى من العمل فقد لا تعود إليه قوته ونشاطه مرة أخرى.

(١) سورة النصر.

لقد علّمنا القرآن أن نصل الحركة بالحركة، والعمل بالعمل، والنشاط بالنشاط، ولا ندع الشيطان يتسلل إلى نفوسنا في الفترات التي تفصل بين مراحل العمل.

تعب أصحاب رسول الله من مواصلة السير في بعض الغزوات، فشكوا أمرهم إلى رسول الله ﷺ فعلمهم رسول الله طريقة من السير أشبه بالهرولة، فزال عنهم التعب وشعروا بالراحة.

ولابدّ للإنسان إلى جنب هذه الاستقامة والتواصل في الحركة من الحذر من الغفلة، فإن لحظة واحدة من الغفلة قد تأتي على كل مكاسب العمل.

فقد غفل المسلمون الرماة في (أحد) عن موقعهم الذي وضعهم رسول الله ﷺ فيه، رغم أن رسول الله ﷺ أكد عليهم ألا يغيروا مواضعهم إلاّ أنهم عندما رأوا الهزيمة في صفوف المشركين ورأوا المسلمين يلاحقون المشركين ويأسرونهم، ويجمعون الغنائم، خالفوا رسول الله ﷺ وتركوا الموقع الذي جعلهم عليه رسول الله ﷺ واندفعوا لجمع الغنائم، فتركوا أظهر

المسلمين من دون حماية، فاغتنم خالد بن الوليد هذه اللحظات من الغفلة فهجم على المسلمين من خلف ظهورهم فأصابهم بجروح وأذى بليغ، يحدثنا عنه القرآن في سورة آل عمران.

إن العمل كله استقامة، ومواصلة وحذر من الغفلة وحضور في ساحة العمل، ولحظة من لحظات الاسترخاء والغفلة والغياب قد تكفي للقضاء عليه إلاّ أن يعصم الله ويحفظ.

وما يصح في العمل في مواجهة الطاغوت والدعوة إلى الله في (الجهاد الأصغر) يصح تماماً في (الجهاد الأكبر) في مواجهة الهوى والشيطان.

فلابدّ للإنسان في مواجهة الهوى والشيطان ومغريات الحياة الدنيا أن يصل العمل بالعمل، وأن يكون حذراً من الغفلة، والحذر من العقل هو (الذكر) فإن ذكر الله يأتي في مقابل الغفلة.

وهذان هما الصبر والصلاة.

فإن التواصل في العمل، ومقاومة التعب والاسترخاء، هو (الصبر)، وذكر الله هو الصلاة.

وهو ما يأمرنا الله تعالى، على طريق ذات الشوكة في الجهاد الأصغر والأكبر على نحو سواء.

﴿اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

وهذا هو الدرس الثالث في هذه السورة المباركة.

والى ربك فأرغب

عرفنا فيما سبق من هذه السورة أن على الإنسان أن يستجمع كل ما آتاه الله تعالى من حول وقوة ونشاط في طريق العمل، ولا يتوانى في الحركة، ولا يتخلل عمله فترات الاسترخاء، ويشد العمل بالعمل، ويصل الحركة بالحركة.

وفي هذا الدرس يعلمنا الله تعالى أن نوجه كل حولنا وقوتنا وحركتنا وسعينا وهمتنا إلى الله.

﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

فلا نرغب في هذه الحركة، والعمل الدائم المتصل إلى غير

(١) البقرة: ١٥٣ .

الله، ولا نطلب مرضاة أحد غير مرضاة الله، ولا نطلب وجه أحد غير وجه الله.

ونوجه عزمنا، وحركتنا، وهمتنا إلى الله.

ونجعل رغبتنا فيما عند الله، ونحب الله، ونحب في الله، ونغضب لله، ونبغض في الله، ونسأل الله، ونستعين بالله، ونتوكل على الله، ونذكر الله، ونوحد الله في العبادة والاستعانة وفي الذكر والدعاء، ونتضرع إلى الله، ونرفع فقرنا وحاجتنا إلى الله.

ونستغفر الله، ونحمد الله، ونشكره ونطلب رحمته، ولا نرغب في ثواب احد غير الله، ونقطع رجاءنا عن كل أحد غير الله، فلا نرجو غير الله، ولا نخاف إلاّ من الله.

وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنّي أعوذ بك من الفقر إلاّ إليك، ومن الذل إلاّ لك، ومن الخوف إلاّ منك»[1].

وخلاصة هذا المقام ما يختصره القرآن في هذه الكلمة الوجيزة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ

(١) بحار الأنوار ٩٤: ٢٣٣.

الْعَالَمِينَ﴾[1].

والآية الكريمة دقيقة في التعبير عن المساحة التي يحتلها الارتباط بالله في حياة الإنسان، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وليس فقط ﴿صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾.

وآيات الكتاب صريحة وواضحة وكثيرة في هذا المعنى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾[2].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[3].

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[4].

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) الإنسان: ٢٤ ـ ٢٦.

(٣) الأعراف: ٢٠٥.

(٤) المزمل: ٨.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[2].

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ﴾[3].

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[4].

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[5].

وهذا هو خلاصة المنهج القرآني في التربية.

فلا يدعو ولا يسأل الإنسان غير الله، ولا يستعين بأحد غير الله،

---

(١) الكهف: ٢٨ .

(٢) الزخرف: ٣٦ .

(٣) الأعراف: ١٢٨ .

(٤) لقمان: ٢٢ .

(٥) البينة: ٥ .

ولا يعبد أحداً غير الله ولا يخضع لأحد غير الله، ولا يأخذ بحكم أحد غير الله، ولا يدين بدين غير دين الله، ولا يطيع غير الله، ولا يوالي أحداً غير الله، وهذا هو (الفصل) و(الوصل). و(الفصل) هو الشطر الأول من كلمة التوحيد، وله عرض عريض والشطر الثاني (الوصل)، وهو التوحيد والإخلاص، توحيد الله في الخلق، والتدبير، والرزق، وفي العبودية، والطاعة، والاستعانة، والتشريع، والحكم، والولاية.

والإخلاص لله في العمل والحب والنية.

وهذا هو الشطر الثاني من كلمة التوحيد.

والشطر الثالث العمل في امتداد توحيد الله وهو الحب في الله، والغضب لله، والبغض في الله، والاستعانة بما سخره الله تعالى لنا من الأدوات والأسباب، والتسليم لمن أمرنا الله تعالى بطاعته، والولاء لمن أمرنا الله بولائه، وحب من أمر الله بحبه، وهذا هو الشطر الثالث للتوحيد، وله عرض عريض ولسنا نستطيع أن نفهم منهج الإسلام في التوحيد إلاّ من خلال هذه الأبعاد الثلاثة.

الفهرس

الأعداد المطبوعة من سلسلة الثقافة الإسلامية

١ ـ كيف نقرأ القرآن.

٢ ـ الاجتهاد والحياة، حوار على الورق.

٣ ـ حوارات وإثارات حول المرجعية والفقاهة .

٤ ـ سلطات الفقيه وصلاحياته في عصر الغيبة.

٥ ـ الانتظار الموجه.

٦ ـ الغربة والاغتراب.

٧ ـ مشروع الوحدة الإسلامية ثقافيا واجتماعيا.

٨ ـ خطاب الاستنصار الحسيني من المدينة إلى كربلاء.

٩ ـ شروط العمل وساحاته.

١٠ ـ دروس عن الثقافة الإدارية والقيادية في الإسلام.

١١ ـ العلاقة مع إسرائيل.

١٢ ـ وقفة مع الدكتور الشيخ البرّاك استاذ جامعة ام القرى بمكّة المكرّمة.

١٣ ـ أدب التعامل مع الخطاب الإلهي.

١٤ ـ الفئات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام.

١٥ ـ مناقشة الفهم الآخر لعاشوراء.

١٦ ـ حضور القلب في الصلاة.

١٧ـ الشعائر والشعارات الحسينية (القسم الأول).

١٨ـ الشعائر والشعارات الحسينية (القسم الثاني)

١٩ـ اللّقاء بين الحوزة والجامعة.

٢٠ ـ لبيك داعي الله.

من منشورات مجمع أهل البيت عليهم السلام ـ العراق

مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام ـ العراق / النجف الأشرف